هوامش

تسعى تركيا إلى إدراج متحف الرعاية الصحية في مجمع السلطان بايزيد الثاني في مدينة أدرنة ضمن قائمة التراث العالمي الدائمة لليونسكو، والتذكير بأنّ العثمانيين اعتمدوا على الطب والترفيه للعلاج النفسي

سيلفي من داخل المتحف (غوخان بالشي/ الأناضول)

متحف بايزيد الثاني

مساعٍ لدخول قائمة التراث العالمي الدائمة لليونسكو

إسطنبول ـ **عدنان عبد الرزاق**

ليس مُستغرباً أن يدخل مسجد تركي ضمن قائمة التراث العالمي الدائمة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (يونسكو). فالخلافة العثمانية تركت، منذ القرن الخامس عشر، أكثر من 80 ألف مسجد بني جلّها على مساحات هائلة وبأكثر الطرازات المعمارية والملحقات العلمية والتأهيلية إبداعاً. واستمرّ بناء جوامع عكست إبداعاً معمارياً، على غرار جامع «تشامليجا» في شطر إسطنبول الآسيوي، الذي دشنه الرئيس رجب طيب أردوغان قبل عامين، وجامع تقسيم الذي افتتحه قبل فترة.

وتعاقبت على هذه البلاد سبع حضارات منذ الألف الأول قبل الميلاد، وترك الرومان، قبل طروادة، فيها الكثير من الآثار، وتبعهم السلاجقة والعثمانيون، ما جعل تركيا اليوم أقرب إلى متحف كبير. إلّا أنّ إدراج مستشفى لعلاج الاضطرابات النفسية والعقلية استخدم، منذ عام 1488، أحدث طرق العلاج من موسيقى وخرير مياه وأصوات الحيوانات، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية تعالج هؤلاء المرضى بالضرب وربما الحرق، يبدو خبراً غريباً ومدهشاً في آن.

قبل فترة، قال مدير متحف الرعاية الصحية بمجمع السلطان بايزيد الثاني، بمدينة أدرنة، روحي بهلوانجيك: «نقوم حالياً ببعض أعمال الترميم والصيانة والإصلاح، في إطار الاستعدادات لإدراج المجمّع ضمن قائمة التراث العالمي الدائمة، بعدما نال العديد من الجوائز المحلية والدولية».

من جهته، يقول المتخصص في التاريخ العثماني مصطفى إيش بيلر إنّ «الخبر ليس إدراج المتحف بالقائمة الدائمة، بل سبب التأخر في ذلك». ويحكي أنّه إلى جانب المستشفى، الذي عدّ متقدماً خلال عصره، وقد استخدم أحدث الوسائل المعتمدة اليوم لعلاج المرضى النفسيين والعقليين، خرّجت كلية الطب الكثير من الأطباء الذين اشتهروا في علاج السلاطين العثمانيين. ويوضح أنه «ربما كان اللوم مشتركاً في تأخر الإدراج؛ منذ خمسة أعوام دخل القائمة المؤقتة وربما حان الوقت لنقله إلى القائمة الدائمة».

يتابع في حديثه لـ«العربي الجديد»: «تؤكد المراجع التاريخية أنّ العثمانيين استخدموا في مستشفى بايزيد الثاني، بعد بنائه عام 1488، العلاج بالعقاقير الطبية والأعشاب، وتعاملوا مع المرضى النفسيين بعيداً عن مفاهيم السحر والشعوذة التي كانت سائدة في تلك الفترة، من خلال العلاج بالأغاني وعزف الآلات الموسيقية، ومحاولة منحهم التوازن النفسي من خلال خضرة وجمال الطبيعة وصوت خرير المياه، بل حتى ربط حاسة الشم وليس النظر والسمع بالعلاج النفسي. وكانت العطور من الأدوية التي استخدمها المجمّع لعلاج المرضى النفسيين». ويشير إلى وجود أدلة توثّق أساليب العلاج هذه لمن يزور المجمع الذي تحوّل إلى متحف يتهافت عليه الزوار من كلّ أنحاء العالم.

وعما إذا كان المستشفى يعالج المرضى من خارج الدولة العثمانية، أي المناطق التي كانت تسيطر عليها والعربية خاصة، يقول الحائز على درجة الماجستير في التاريخ العثماني مصطفى إيش بيلر: «كان المستشفى مفتوحاً لأيّ مريض نفسي أو عقلي يأتيه من أيّ مكان في العالم، خصوصاً من مناطق الإمبراطورية. وكان العلاج مجانياً، بحسب الوثائق، وتؤمن الدولة أماكن لقضاء فترة نقاهة ومتعة للمريض ومرافقيه، للتأكد من سلامته بعد العلاج، إذ أحياناً كانت تستخدم فيه الجراحة أو الأمصال المصنوعة من الأعشاب، الأمر الذي يعكس مستوى التطور والتقدم الحضاري والإنساني للدولة العثمانية، وإن كان البعض يحاول التسويق لها بكونها الإمبراطورية القوية التي فتحت العالم فقط».

ويختم بيلر حديثه قائلاً إنّ المستشفى وكلية الطب شهدا أعمال ترميم قبل أن يتحولا إلى متحف عام 1986. ومنذ ذلك الوقت، بدأ تهافت الزوار، وقد نال المتحف جائزة المتحف الأوروبي عام 2004، وجائزة أفضل عرض تقديمي في كرواتيا عام 2005، وجائزة أفضل عرض تقديمي في ألمانيا عام 2008، ليتم بناء على طلب تركيا، إدراجه عام 2016 ضمن القائمة المؤقتة للتراث العالمي.

إلى ذلك، تقول الباحثة في التاريخ شناي تشاغتاي إنّ أهمية إدراج موقع «طبيعياً كان أو من صنع البشر ضمن قوائم مواقع التراث العالمي، تأتي أولاً من الاعتراف بأهمية وتفرّد الموقع، فلجنة التراث العالمي هي التي تكشف وتحدد الأهمية قبل الترشيح لليونسكو. الآن، زوار متحف بايزيد في أدرنة لا يزيدون عن 300 ألف سنوياً، وكانوا أقل من 100 ألف قبل الترميم، خلال الإدراج في إطار القائمة المؤقتة، لكنّ التوقعات بأن يتضاعف الرقم بعد الدخول في القائمة الدائمة. ومن الفوائد أيضاً أنّ الموقع يصان ضد التخريب أو الاندثار بعد التسمية والتصنيف، ويتم تقديم المساعدات المالية السنوية للمحافظة عليه». تتابع تشاغتاي، متحدثة لـ«العربي الجديد»، أنّ بلادها دخلت منذ عام 1985 ولأول مرة، من خلال تسجيل خمسة مواقع، لكنّها خلال عام ما قبل كورونا (2019)، تصدرت المرتبة الأولى في القائمة المؤقتة لمواقع التراث العالمي، بعد إدراج 77 موقعاً تركياً.

أما بالنسبة للمواقع التركية المدرجة على القائمة الدائمة، فتقول تشاغتاي: «دخل إلى القائمة موقع جوريم الوطني، ومواقع كبادوكيا الصخرية، والمسجد الكبير، ومستشفى ديورجي، والمناطق التاريخية في إسطنبول، وقد بلغت ثمانية مواقع عام 2010. واليوم، يبلغ عدد الأماكن الأثرية التركية المدرجة بالقائمة الدائمة 18 موقعاً، منها حاتوشا، عاصمة الحيثيين، وجبل نمرود، وينابيع باموكالي، ومدينة ليتون التاريخية، ومدينة سفرنبلو، ومدينة طروادة».

إلّا أنّ إدراج مجمّع بيازيد الثاني بالقائمة الدائمة لليونسكو، يختلف عن إدراج مدينتي شاتال هويوك وأفس أو قرية جومالي كيزيك وحتى أسوار ديار بكر، لأنّ للمجمّع الطبي في ما تؤكده كتب التاريخ عن الرعاية التي كان يقدمها وطرق العلاج المبتكرة، انعكاسات أخرى تدلّ على ما في هذا الموقع من رقيّ حضاري وتطور علمي.

باختصار

استخدم العثمانيون في مستشفى بيازيد الثاني العلاج بالعقاقير الطبية والأعشاب، وتعاملوا مع المرضى النفسيين بعيداً عن مفاهيم السحر والشعوذة

■■■

نال المتحف جائزة المتحف الأوروبي عام 2004 وجائزة أفضل عرض تقديمي في كرواتيا عام 2005 وجائزة أفضل عرض تقديمي في ألمانيا عام 2008

■■■

بناءً على طلب تركيا، أُدرج المتحف في عام 2016 في القائمة المؤقتة للتراث العالمي

وأخيراً

في مديح الكذب

رشا عمران

لا أحد يكذب في العالم، الجميع يقولون الحقيقة، مهما كانت قاسية أو مؤلمة أو غريبة. يقولون ما يفكّرون به من دون أي حسابات، إذ لم تكن الحسابات في خاطر أحد. الجميع يعبّرون عن مشاعرهم كما هي، من دون أي تزييف أو مراعاة لأحد... مارك بيلسون كاتب سينمائي فاشل، ليس لأنه بلا موهبة، بل لأن الشركة السينمائية التي يعمل فيها أوكلت إليه مهمة الكتابة عن القرن الرابع عشر، وعن الطاعون الأسود الذي اجتاح العالم في ذلك القرن. لا شيء جميل وممتع في المرض والموت، ولا يمكنه اختلاق أحداثٍ من خياله، فالخيال من أنواع الكذب، والكذب ليس معروفاً. يُفصل من عمله، ويطرده صاحب الشقة التي يعيش فيها ليصبح في العراء، حين يذهب إلى المصرف لسحب نقوده المتبقية في حسابه، وهي 300 دولار، يحدُث خطأ بسيط، يكتشف معه «الكذب»، وهنا تبدأ حياته بالتغير. مع اكتشافه الكذب يكتشف كيف يمكنه استخدام خياله، فيخترع حكاية أسطورية عن القرن الرابع عشر، وتنتجها شركة السينما فيلماً يحقّق نجاحاً مهولاً، ويكسب مالاً كثيراً. أما نقطة التحول الكبرى فهي لحظة موت والدته المقيمة في دار العجزة. كانت خائفةً من الموت والعدم، إذ لم يكن الخيال عن «العالم الآخر» والأبدية والثواب والعقاب موجوداً، فيستخدم مارك خياله، ليحكي لها عن النعيم الذي ستلاقيه بعد الموت أمام طاقم المستشفى الذي نقلت إليه، فيذهب خوفُها وتموت وهي مبتسمة. وينتشر الخبر في العالم عن الرجل الذي يعرف ماذا سيحدُث بعد الموت. تحاصر منزله وكالات الأنباء، فيضطر إلى خلق فكرة «الرجل الذي يعيش في السماء ويعرف كل شيء»، والذي يخبره عما بعد الموت. مع مارك بيلسون إذاً يبدأ اختراع الكذب الذي لا يعرفه أحد سوى ابنه الصغير. هكذا يبدأ الكذب بالانتقال من جيل إلى جيل. تلك هي حكاية فيلم «اختراع الكذب» (the invention of lying). أميركي كوميدي أنتج عام 2009، من تأليف ريكي جيرفيه وإخراجه وبطولته (منتج ومخرج وممثل كوميدي بريطاني). يُعرض الفيلم الآن على منصة «نتفليكس». حقق إيرادات عالية في عام عرضه، على الرغم من غرائبيته، لكنه فيلمٌ ممتعٌ بحق، ويكشف عن خبايا النفس الإنسانية بطريقة كوميدية وسهلة وخفيفة، مثلما يقدم منشأ «فكرة» الأديان، من دون إيديولوجيا مضادة، ومن دون نظريات كبيرة، فالخوف من المجهول، (الموت) وهو المجهول الأكبر، هو خلق فكرة الأديان، حسب صنّاع الفيلم. وبالعودة إلى الأساطير القديمة ونشوء الآلهة، دائماً كان الخوف من الظواهر المجهولة هو ما يدفع إلى اختراع ما يُبعد أذى تلك الظواهر، الشمس والنار مثلاً. منشأ فكرة الموت والبعث في الديانات القديمة الخوف الأزلي من الموت، وتطوّرت مع تعاقب الزمن، لتصل إلى شكلها الحالي، والذي يبدو نهائياً.

بعيداً عن الموت والخوف منه، ماذا لو كان العالم فعلاً كما قدّمه صناع الفيلم، عالماً من الحقائق، لا يعرف أحدٌ فيه شيئاً عن معنى الكذب؟ كيف سيكون شكل هذا العالم؟ الفيلم يقدّم البشر متعايشين مع فكرة قول الحقيقة كما هي. لا أحد يغضب من أحد إن قال له إنه مثير للاشمئزاز مثلاً، فهو يقول ما يشعر به، وعلى الآخر تصديقه واعتبار ذلك نافلاً. قد يكون هذا العالم مثالياً، خالياً من الاضطرابات النفسية التي تتشكّل في العقل الباطن من الخوف. ليس الخوف من الموت فقط، بل من الحياة والبشر والطبيعة. مع عالم الحقائق، يبدو كل شيء واضحاً وصريحاً، ولا أحد فيه يستغرب ما يقال أو يحدث، إذ إن الوضوح والحقائق يتيحان معرفة ماذا سيحدث بعد قليل من دون توقعات، فالتوقعات ينتجها الخيال، والخيال ضد الحقيقة، والحقائق، بكل قسوتها وشراستها، هي ما يحكم علاقات البشر، إنه عالم مثالي حتماً... أليس كذلك؟

> الخيال اختراع ما يتجاوز الحقيقة، يمنح للحياة طراوتها وليونتها التي تعمل الحقائق المحضة على جعلها جافّة وقاسية

لكن مهلاً، هذا العالم، بلا عواطف، بلا مشاعر، عالم بارد، خالٍ من المفاجآت، خالٍ من الشغف والتشويق، عالم خالٍ من الفنون، من السينما، من الشعر، من الأدب، من الاختراعات، من التطوّر العلمي، من كل ما يعتمد على الخيال البشري في وجوده، فالخيال هو «الفعل أو القوة لتشكيل صورةٍ ذهنيةٍ لشيء غير موجود للحواس، أو لم يسبق له مثيل في الواقع، هو القدرة الإبداعية لعقل الإنسان»، حسب تعريفات بعض الفلاسفة. هو باختصار اختراع ما يتجاوز الحقيقة، وهو ما يمنح للحياة طراوتها وليونتها التي تعمل الحقائق المحضة على جعلها جافّة وقاسية. تخيّلوا حياتكم بلا كلمات إطراء، بلا غزل، بلا أحلام يقظة، بلا توقعات، ألن تكون بالغة البؤس؟

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**